كلية الآداب / قسم التاريخ

المرحلــة الثانيــة

المادة / تاريخ البلاد العربية

عنوان المحاضرة // الحركة السنوسية والمهديـة

أستاذ المادة / م.م. عمر رزاق حمود

مصدر المحاضرة //

- إبراهيم خليل احمد / تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٦

الحركة السنوسية:

أ. بدء الدعوة السنوسية:

كانت الحركة السنوسية، في بدء نشأتها، طريقة صوفية تدعو إلى تقوى الله والعمل الصالح واحياء الاسلام في بساطته الاولى، وتخليصه من شوائب البدع والدعوة إلى العمل الصالح المنتج. ومؤسس هذه الحركة محمد بن علي السنوسي، الذي ولد في قرية (الواسطة) قرب مستغانم بمقاطعة وهران الجزائرية في ١١ كانون الاول سنة ١٧٨٧م. وترجع تسمية الاسرة بالسنوسية إلى جده الرابع الذي كان من كبار علماء المسلمين وكانت اسرته ذات سمعة علمية تحظى بالاحترام. وقد اقبل منذ حياته الاولى على العلم وادرك حاجة المجتمع العربي الاسلامي إلى الاصلاح، مما حفزه على الاستزادة من العلم، فانتقل إلى فاس حيث جامع القرويين واقام هناك سبع سنوات، يطلب العلم ويدرسه. وفي غضون ذلك صار له تلامذة عديدون، ونال شهرة كبيرة. وقد اهتم بدراسة الحركات الصوفية المنتشرة انذاك وخاصة القادرية والشاذلية وتألم لقلة الحماسة لدى علماء المسلمين وانصراف الحكام والمسؤولين في الاقطار العربية والاسلامية إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة. وتألم لما اصبح عليه العرب والمسلمون في تدهور في اوضاعهم العامة، وهزت في نفسه انباء الغزو الاستعماري الاوربي لبعض الاراضي العربية بحيث صارت «المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من ايدي المسلمين في اي وقت وبسرعة البرق». ولقد اشعرته هذه الاوضاع بضعف العرب والمسلمين اقتصادياً ودينياً واجتماعياً، وبضعف الدولة العثمانية وعجزها عن مواجهة هذا التغلغل الاستعماري الذي احرز نجاحات متعددة وخاصة في المغرب العربي. لذلك، فقد قرر نشر دعوته الهادفة إلى اقامة مجتمع جديد قوي مقتدر على مواجهة التحديات فقام برحلات واسعة إلى بعض الاقطار العربية بهدف تكوين صورة واضحة لما كانت تمرّ به من ظروف انذاك، وللاحتكاك برجال العلم والفقه منها. فترك فاس إلى لاغوات في جنوبي الجزائر وهي مركز مهم تتجمع فيه القوافل

الآتية من السودان الغربي . ثم توجه نحو فاس وطرابلس وبنغازي ، ووصل إلى القاهرة سنة ١٨٢٤م حيث اقام فيها فترة من الزمن، اتصل خلالها ببعض علماء الازهر ودخل معهم في حوار، حول اسس دعوته وطبيعة المنهج الذي يراه لاصلاح اوضاع المسلمين انذاك. ثم ذهب إلى الحجاز سنة ١٨٢٥م املا في الالتقاء باكبر عدد من المسلمين هناك. وحين قرر العودة الى بلاده ، لم يستطع ، وقد احتلها الفرنسيون سنة ١٨٣٠م، لذلك رحل وطاف بجنوب الجزائر حيث لم يكن قد سقط بعد في يد الفرنسيين .. ثم غادره الى القاهرة فالحجاز مرة ثانية، وفي الحجاز اقام زاويته الاولى فوق جبل ابن ابي قبيس بمكة سنة ١٨٣٧م .

ب. مؤسسة الزاوية السنوسية ووظائفها :

لقد أدرك السنوسي ، بعد أن وجد بلاده محتلة من قبل الفرنسيين ، عظم المخاطر وشدة التحديات التي كان يواجهها العرب والمسلمون انذاك ، ويأتي في مقدمتها الأستعمار الأوربي المسلح بحضارة حديثة والسلطنة العثمانية التي اصبحت قيداً على الأقطار العربية ، بحيث تعوق انطلاقها ، ومن ثم فقد عدت بما تمثله من ضعف وانحلال وجمود ، ثغرة واسعة تتيح للغرب الأوربي السيطرة على ولاياتها الواحدة بعد الأخرى . لذلك ، وامام مثل تلك التحديات ، لابد من اعداد الأنسان العربي ، اعداداً خاصاً . ومن (الرباط) الأسلامي الأول استلهم السنوسي فكرة الزاوية التي ارادها أن تكون مركز الحياة الجديدة التي كان يطمح إلى اقامتها وسط محيط قد رفضه وعزم على تغييره في المدى الطويل . وبعد ثلاث سنوات غادر الحجاز إلى مراكش ، واستقر في فاس ، يمارس التدريس ، ويدعو إلى طريقته الجديدة ، لكن حكومة مراكش خشيت من انتشار دعوته ، وضيقت الخناق عليه ، فاضطر إلى مغادرتها متوجها إلى طرابلس الغرب سنة ١٨٤١م ومن طرابلس اخذ هو وانصاره يسهمون في بعض حركات المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي وخاصة في الفترة من ١٨٤٨ وحتى ١٨٦١م . وفي الزاوية

البيضاء على الساحل الليبي كانت الزاوية الثانية التي أقامها في برقة . وبعد ذلك عاد إلى الحجاز للمرة الثالثة . فاقام بها ثماني سنوات ، ومنها نشر طريقته في انحاء عدة من الحجاز واليمن وتأسست لها الزوايا في المدينة والطائف والحمراء وينبع وجدة ورباح ووادي فاطمة والمضيق واصفان وابان .. ثم غادر الحجاز عائداً إلى الجبل الأخضر بليبيا ، فاستقر هناك منذ سنة ١٨٥٤م مؤسساً الكثير من الزوايا لتكون مراكز ليست للعبادة والتعليم فقط ، وانما لكي تضم كافة جوانب النشاط والأنتاج .

كانت الزاوية ، بمثابة المؤسسة الحكومية ، وكان على رأسها قائد يسمى (مقدم الزاوية) يوجه الأهالي ويحل مشاكلهم ويحثهم على مزاولة الأنتاج الزراعي . اما شيخ الزاوية ، فيتولى شؤون التعليم والقضاء ومع المقدم وكيل يشرف على الزراعة وشؤون الأدارة والمال والأقتصاد . وللزاوية مجلس يتألف من المقدم والوكيل والشيخ ورؤساء القبائل المجاورة للزاوية ووجوهها . وفي الزاوية مسجد للصلاة والتعليم . ومنزل لقائدها وللوكيل وللشيخ وفيها بيوت للضيوف وعابري السبيل ، وللفقراء الذين لا مأوى لهم ، وفيها مساكن للخدم ، ومخازن للمؤن واصطبل ، ومتجر ، وفرن ، وسوق .. وتحيط بهذه المباني ، المساكن الخاصة بالقبائل التي تقوم الزاوية في منطقتهم . وللزاوية ارض زراعية خاصة بها ، وابار جوفية وصهاريج لحفظ المياه . وتزرع أرض الزاوية جماعياً وبدون اجر ، اما انتاجها ، فينفق على احتياجات فقرائها وضيوفها ، غذاء وكساء وتعليماً وما شاكل . وما يبقي يذهب إلى المركز الرئيس للطريقة .

لقد انتشرت حركة بناء الزوايا ، واحصى المؤرخون منها مائة وثماني وثمانين زاوية ، خمس وعشرون منها في شبه الجزيرة العربية وسبع وتسعون في ليبيا ، وسبع واربعون في مصر ، وسبع عشرة في السودان ، واثنتان في تونس . وقد حولت تلك الزوايا ، التي انتشرت في مناطق صحراوية الارض القاحلة الى واحات خضراء . ومن هذه الزوايا انطلق الدعاة السنوسيون الى

النظر في المجتمع العربي وفي اساليب الحكم، وكل منهما دفع بالمنطقة إلى آفاق دولية جديدة، ولكن بينما كانت الحملة الفرنسية، حركة إستعمارية أجنبية كانت الحركة الوهابية اصلاحية ثيوقراطية دينية محلية.

ظهرت اثار الحركة الوهابية، قوة محركة ودافعة في كثير من مناطق الوطن العربي. فقد استلهمها محمد بن علي السنوسي مؤسس الحركة السنوسية في ليبيا وبعض دول افريقيا كما سنرى. وكانت مثالاً للحركة المهدية في السودان. وبلغ اعجاب سلطان مراكش مولاي محمد بن عبدالله ١٧٥٧ — ١٧٩٠م بها حداً جعله يردد في مجالسه «انني مالكي المذهب، وهابي المبدأ».

وكتب المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي، الذي عاصر الفترة المهمة في ظهور الوهابية، وتابع باهتمام وتعاطف من القاهرة الاخبار التي كانت ترد في الجزيرة، ان الوهابيين حين دخلوا المدينة المنورة «لم يحدثوا فيها غير منع المنكرات». وفي اليمن دعا الامام الشوكاني المتوفي سنة ١٨٣٤م في كتابه القيم «نيل الاوطار» إلى عدم زيارة القبور والتوسل بها، وحارب التقليد ودعا إلى الاجتهاد وخلف تلامذة كثيرين يدينون برأيه وفي مصر شب الشيخ محمد عبده فرأى تعاليم ابن عبد الوهاب تملأ الجو، فعاد إلى أصولها وادى اجتهاده وبحثه إلى الاساسين اللذين بنى عليهما محمد بن عبد الوهاب تعاليمه وهما: محاربة البدع وفتح باب الاجتهاد وجرد نفسه لخدمة هذين الغرضين كما سنرى ومن الذين تأثروا بالحركة الوهابية عدد من المفكرين الذين سنتحدث عن بعضهم فيما بعد منهم مفتي بيروت الشيخ عبد الباسط فاخوري ومفتي بغداد محمد شكري الآلوسي وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا وغيرهم وفضلا عن ذلك، فقد فتحت الحركة الوهابية برفضها البدع الباب للدراسة النقدية للمؤلفات المتصلة بالسنة والشريعة.

ويشكو السياسي الاستعماري جابرييل هانوتو Hanotaux (١٨٥٣ – ١٩٤٤م) وزير خارجية فرنسا من تفاقم نشاط السنوسيين ومعاداتهم للفرنسيين فيقول:

«لقد اسس الشيخ السنوسي، وفي جهة ليست بعيدة من الاصقاع التي تملكنا في الجزائر مذهباً خطيراً، له اشياع وانصار. ومن مذهبهم التشدد في رعاية القواعد الدينية..وقد لبثوا زمنا مديداً لايرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية (العثمانية) بسبب ما بينها من العلاقات وبين الدول المسيحية (الاوربية).. وهم يطرحون حبائل الدسائس التي اوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في افريقيا الجنوبية..فهناك... نرى درويشاً فقيراً، متدثراً بارديته البيضاء المعلمة بخطوط سوداء، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه، لايلوب عن ذلك شيء .. ينتقل من خيمة الى خيمة ومن قرية الى قرية... يبذر في القلوب، حيثما حل واينما توجه، بذور الحقد والضغينة علينا.. انهم يخترقون، بلا انقطاع ولاتوان مستعمراتنا الافريقية، فيستقبلهم اهلوها بالترحاب...) ومما يستوجب العجب والدهشه انهم يجمعون من الاموال والصدقات مايزيد عن ضعف المبلغ الذي نجبيه من الضرائب كل سنة من اهالي الجزائـر ... ».

اخذت القوى الاوربية تتوجس خيفة من السنوسيين ونشاطاتهم المتعددة ولاسيما في مجال نشر الاسلام ومقاومة الغزاة. وقد قامت الارساليات التبشيرية الاوربية التي شكلت طلائع الغزو الاستعماري الاوربي بالضغط على حكوماتها، والتوسط لدى الدولة العثمانية للحد من نشاط السنوسيين الذين رفضوا منذ البدء الاعتراف بالسيطرة العثمانية واعلنوا ، بلسان شيخهم وقلمه ان الخلافة لابد وان تكون عربية قريشية للملاء فان السنوسيين واجهوا ضغوطا عديدة، فالعثمانيون بدأوا في ملاحقتهم مما اضطر زعيمهم المهدي السنوسي (١٨٤٤ – ١٩٠٢م)،الذي خلف اباه في قيادة الحركة، وكان له فضل تحويلها من حركة دينية الطابع الى حركة دينية – عسكرية سياسية قوية زادت من اهميتها وخطورتها،الى ترك الجغبوب في سنة ١٨٩٤م الى

واحة موغلة في الصحراء تدعى (الكفرة) بعد ان رفض محاولات ا
عبدالحميد الثاني، لاستقدامه الى استانبول والعيش فيها تحت رقابة ا
ولقد سبب انتقال السنوسيين الى الكفرة من اصطدامهم مع الفرنسيين المست
الذين كانوا يتوسعون حول بحيرة تشاد. وقد كانت نتيجة الصدام
حدث في سنة ١٩٠٠م ان انهزم السنوسيين وفي سنة ١٩٠٢م مات المه
السنوسي، فعاد اتباعه الى مقرهم في الكفرة في الوقت الذي بدأ فيه الايط
المستعمرون غزوهم لطرابلس فشكل السنوسيون انذاك عصب المقاومة
الغزاة كما سنرى.

د طبيعة الحركة السنوسية :

لم تكن الحركة السنوسية ، في حد ذاتها حركة سلفية محضة ؛
أنها كانت كما يرى المؤرخ الفلسطيني الدكتور احمد صدقي الدجاني ،
فعل مباشر ضد التغلغل الاستعماري الاوربي . كان السنوسي الكبير
ان تحرر العرب والمسلمين من ربقة السيطرة الاوربية والتسلط العثماني
لابد وان يسبقه تجدد في الجوانب الروحية (الفكرية) وهذا لايتم الا بالر
الى القرآن والسنة اى الى الاسلام الحقيقي وتطهيره مما لحق به من بد
لهذا كان القرآن والسنة لديه ،شأنه في ذلك شأن سلفه ابن عبدالوهاب ،
الاصلين اللذين يصح الاعتماد عليهما في فهم الاسلام دون الاجماع والق
المتأخرين . الا انه اجاز الاجتهاد للقادرين عليه ،وانتقد التقليد والجمو
لذلك واجه معارضة بعض العلماء المحافظين امثال شيوخ الازهر ؛
لقد هم احدهم وهو الشيخ عليش (١٨٠٢ — ١٨٨٢) ان يقتله
حين كان في القاهرة .

وفي الوقت نفسه فقد عملت السنوسية على تقديم النموذج العملي للمج
الجديد المنشود ، وتمثل ذلك بالزوايا التي اقامتها وجعلتها كما سبق ان
مراكز للنشاط الاقتصادي والسياسي والاجتماعي . ومن ثمنا كان اهم

ـة والتعليم والتدريب على الفروسية واستخدام السلاح . والمران
ـون الحرب والقتال . الا انها ، كما يذكر الدكتور احمد عبدالرحيم
ـ « تأثرت برواسب عصور الانحطاط ، فلم تهتم بالعلوم التطبيقية
ـث تغييراً جذرياً في اساليب التفكير (الموروثة) ...» .هذا فضلا عن
للطرق السلمية الاصلاحية في إنتشارها ومهادنتها القوى الموجودة
ـتمع لتتفرغ للعمل في ارساء قواعدها ، وفي هذا تختلف عن الحركة
ـة التي أنتهجت أسلوباً ثورياً في تغيير المجتمع .

الحركة المهدية :

ع الحركة ومقدماتها :

كانت الحركة المهدية كنظيرتيها ، الوهابية والسنوسية في بدايتها
دينية تدعو الى العمل الصالح ومحاربة التقليد والخرافات والبدع
ـلت الاسلام في مراحل الركود والظلام ، لكن ظروفاً سياسية واقتصادية
عية متدهورة واجهها المجتمع العربي في السودان منذ مطلع القرن
عشر ،جعلتها تتطور الى حركة سياسية تجديدية . فهي رد فعل كبير
الادارة وتغلغل النفوذ الانكليزي في السودان وللعدوان الاجنبي
ـر القرن التاسع عشر على شواطئ افريقيا الشرقية .

ـد مرينا في صفحات سابقة ان السودان دخل في حوزة الحكم
في عهد محمد علي باشا بين سنتي (١٨٢٠ ــ ١٨٢٢)م واشرنا الى ان
حققوا في السودان امرين مهمين : اولهما تحديثه . وثانيهما توطيد
فيه . الا ان اوضاع مصر السياسية والاقتصادية المتدهورة وخاصة
الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ ــ ١٨٧٩م) والخديوي توفيق (١٨٧٩
١)م سرعان ما انعكست على السودان حيث اختلت الضائقة الاقتصادية
ـاد الاداري فيه . وقد نجم عن ذلك ازدياد استغلال موارد السودان
الموظفين المصريين الذين كانوا يرسلون الى الجنوب ،ومعظمهم

الاصلاح الديني في اوربا، فانتشرت اصداءها في الولايات العربية ووفرت نموذجاً للثورة على الحكم الفاسد والمجتمع المنحل، ولو كان حكماً مسلماً. كما كانت مصدر الهام لكثير من الحركات والدعوات الاصلاحية في القرن التاسع عشر. فقد وصف جان ريمون، وكان قنصلا لفرنسا في بغداد سنة ١٨٠٦م وعاصر دخول الامير محمد بن سعود مكة رد فعل الجماهير بقوله: «ان روح الفتح استأثرت بقلوب الجماهير، فراحت تستعيد ذكرى تاريخ العرب المجيد القديم، واخذت الاحلام تراودها برؤية امرائها متربعين على كرسي الحكم. والفقرة التالية تدلل على صحة رأيي: امس قال احد الوهابيين وبلهجة نبي يتنبأ: «لقد اقترب الوقت الذي سنرى فيه عربياً على عرش الخلافة، وكم طال علينا الزمن الذي قاسينا فيه مرارة العيش تحت نير مغتصب». ولقد ظهر من الرسائل التي كان يرسلها الدعاة الوهابين إلى الولاة العثمانيين التركيز على الناحية العربية من الاسلام، اذ جاء في رسالة عليان الضبيني احد قادة سعود بن عبد العزيز إلى يوسف باشا كنج والي دمشق قوله: «ونحن اعراب، ونبينا محمد عربي، واصحابه اعراب». وقال احد الأئمة الوهابيين بفخر حين كان يتحدث عن الامامة: «انه اذا كان نوالها بالاختيار فالعرب احق بها من الاتراك». ولقد احدثت الحركة الوهابية صدمة في نفوس العرب، ودفعت الكثيرين إلى احياء ذكرى العهد العربي الاول، ومن ثم إلى اعمال الفكر في حاضرهم المتخلف وتلمس وسائل النهضة وسبل التغيير، مما ادى إلى اكتسابها كما يقول بعض المؤرخين، ملامح قومية جعلتها تمثل خطوة حاسمة في يقظة الوعي العربي القومي. وهناك مؤرخون آخرون يعدونها اول حادث جليل هز حبل الارتباط بين الدولة العثمانية والاقطار العربية. ويقارن الدكتور عبد العزيز نوار بين تأثير الحركة الوهابية والغزو الفرنسي لمصر ويرى ان هناك اوجه شبه وتناقضاً بينهما كذلك. فهما في نظره حدثين هزا الوطن العربي هزاً عنيفاً وكل منهما هدد كيان الدولة العثمانية ونجدى سلطتها، وايقظ في الناس روح التفكير والنقد واعادة

مناطق البدو والقبائل العربية في الصحراء وفي قلب افريقيا، ينشرون الاسلام ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويحاربون البدع والعادات والتقاليد الجاهلية. ويدعون في الوقت نفسه الى محاربة المستعمرين والحيلولة دون تمكنهم من ارض العرب والمسلمين.

جـ. تطور الحركة السنوسية :

اتخذ محمد بن علي السنوسي وعرف بالسنوسي الكبير لذلك (١٧٨٧ — ١٨٥٩م) من واحة الجغبوب الواقعة جنوبي واحة سيوه من الغرب بمقدار (٣٠) ميلاً مركزاً لحركته واتباعه. وقد اختار الجغبوب لانها كانت اكثر توسطاً واسهل اتصالاً بانحاء اخرى من برقة وطرابلس والسودان الغربي. كما كانت مركزاً كبيراً للقوافل وانشأ بها مدرسة دينية ومكتبة ضمت الاف المجلدات في الفقه والحديث والتاريخ والفلك والفلسفة والتصوف. وكانت المدرسة تضم كل سنة قرابة ثلاثمائة طالب يتحولون بعد تخرجهم الى قادة ودعاة للحركة. ولم يمض وقت طويل حتى اصبح للسنوسية اتباع كثيرون في شبه الجزيرة العربية وفي افريقيا من مراكش الى الصومال. وبفضل حركة الدعوة التي قادتها السنوسية دخل الاسلام واكتسب انصاراً في النيجر، والكونغو، والكاميرون، والداهومي، وحول بحيرة تشاد التي اصبحت مركزاً في اواسط افريقيا وكان بتعاليمه من حولها اربعة ملايين من السكان الافارقة، حتى ليقال ان السنوسيين هم الذين صنعوا الحزام الاسلامي لافريقيا جنوبي الصحراء. ويشير احد الرحالة وهو كوبولاني Copoulani الى اسلوب الدعاة السنوسيين فيقول انهم كانوا يدخلون المناطق تارة بهيئة تجار وتارة اخرى بهيئة دراويش. وبعد ذلك يبنون الزوايا، لينشروا الاسلام بين القبائل الوثنية التي كانت تستوطن قلب افريقيا وغربها. ولم تقتصر مهمتهم على ذلك، بل قاموا بالتوغل في المناطق التي شهدت محاولات الغرب الاستعماري في شمال ووسط افريقيا للسيطرة عليها ووقفوا الى جانب سكانها في نضالهم.